ملامح نسق القيم الاجتماعية السائد في المجتمع الجزائري على ضوء دراسات بيار بورديو

الأستاذ: حسان تريكـــي
قسم علم الاجتماع
جامعة باجي مختار – عنابة

الملخـــص:

نركز الاهتمام في هذا المقال على التعرف على الملامح الأساسية والعامة لنسق القيم الاجتماعية السائد في المجتمع الجزائري على ضوء دراسات بيار بورديو Pierre Bourdieu التي قام بها خلال الفترة التي قضاها فـــي الجزائـــر (1956–1960)، والتـــي نشـــرها في مؤلفه الشهيـــر "Sociologie de l'Algérie". كما سنحاول من خلال هذا المقال إبراز التغيرات التي طرأت على نسق القيم في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال.

مقدمـــة:

يعتبر موضوع القيـــم من المواضيع التـــي أثارت اهتمـــام المفكريـــن والباحثين في ميادين عدة كالفلسفة، علم الإجتماع، التربية وعلم النفس، وهذا ما يؤكد أهميتها باعتبارها تشكل إحدى المحددات الهامة للسلوك الفردي و الإجتماعي على حد سواء، كما تعتبر من المؤشرات الأساسية لنوعية الحياة ومستوى الرقي والتحضر، إضافة إلى كونها جزء لا يتجزأ من الإطار الحضاري والثقافي للمجتمع.

وتمثل القيم جانبا رئيسيا من ثقافة أي مجتمع، بل يمكن القول أنها تمثل لب الثقافة وجوهرها. وقد ازداد في عصرنا الإهتمام بدراسة القيم وتحليل طبيعتها، لأنها تتصل بكل مجالات الحياة الإجتماعية، الإقتصادية، السياسية، الدينية والجمالية للأفراد والجماعات. فمعرفة قيم مجتمع ما يسمح بالتعرف على الاديولوجيات والفلسفة العامة لهذا المجتمع، ويساعد على رسم مختلف سياسات التخطيط للمستقبل. كما أن عملية التنمية تحتاج إلى تحليل طبيعة القيم، من أجل تدعيم ما يحقق المصلحة العامة للمجتمع ونبذ كل ما يعيق تقدمه.

وتستهدف الدراسات الاجتماعية للقيم، معرفة محركات السلوك لاستغلالها في دفع عجلة التنمية، وكذلك معرفة القيم السالبة لوضع التخطيطات الملائمة لإحداث تغيير كيفي في السكان، وتغيير نظرتهم لأنفسهم، وللأشياء والموضوعات.

ومن أبرز الدراســـات السوسيولوجيـــة التي تناولت المجتمع الجزائـــري نجد الدراسة التي قـــام بها أحد عمالقة علم الاجتماع الحديث بيار بورديو Pierre Bourdieu(*)، والتي نشـــرها في أول كتـــاب له Sociologie de l'Algérie (**) سنة 1958. وقد اهتم بورديو في هذه

الدراسة بالتفاصيل الدقيقة للحياة اليومية للجزائريين، ودرس اللسانيات والثقافة الشعبية السائدة وبنية الأسرة والعلاقات القائمة بين أفرادها. ووصف بدقة متناهية الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية في هذا المجتمع.

وقسم المؤلف كتابه إلى ستة فصول: خصص الفصل الأول لدراسة الأشكال البنائية لمنطقة القبائل وبناء الأسرة في المجتمع القبائلي، أما الفصل الثاني فخصصه لدراسة البنى الاجتماعية للشاوية، ويدرس الفصل الثالث تركيبة وخصائص ومميزات المجتمع الميزابي، وفي الفصل الرابع درس الأشكال البنائية للعرب، من خلال دراسة الحضر والبدو ونصف البدو. ويختص الفصل الخامس بدراسة العمق المشترك، أي الجوانب المشتركة بين مختلف الوحدات المكونة للمجتمع الجزائري. وأخيرا اهتم الفصل السادس بدراسة تفكك البنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري بفعل النظام الاستعماري.

ومن أجل تفادي الوقوع في التقسيمات الإثنية وعدم تكريس التحليل الانقسامي في دراسة البنى الإجتماعية للمجتمع الجزائري، السائد عند علماء اجتماع الحقبة الاستعمارية، والذي يجسد سياسة فرق تسد لفرنسا الإستعمارية. ركزنا في تحليلنا لطبيعة نسق القيم السائد في المجتمع الجزائري على الفصل الخامس (***) من الكتاب، الذي تناول دراسة العمق المشترك، أي دراسة البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري كوحدة متماسكة. من خلال الاهتمام بالجوانب المشتركة ونقاط الالتقاء والتداخل بين مختلف مكونات المجتمع بغض النظر عن الاختلاف والتمايز الموجود بين الوحدات الفرعية المشكلة له.

وتسمح لنا دراسة وتحليل طبيعة نسق القيم السائد في المجتمع الجزائري أثناء الحقبة الإستعمارية، بالتعرف على التحولات التي طرأت على

نسق القيم السائد في المجتمع الآن. وبالتالي كشف حركة الهدم والإتلاف القيمي التي استهدفت البنية العتيقة من تراثنا.

أولا: تحديد المفاهيم الأساسية:

1. **مفهـــوم القيـــم:**

لقد اختلفت تعاريف المفكرين للقيمة ويعزى هذا الإختلاف والتباين إلى المنطلقات النظرية والفكرية لهم. وفي علم الإجتماع قدم الباحثون العديد من التعاريف للقيمة، ومن أقدم هذه التعاريف هو تعريف توماس وزناينكي Thomas & Znaniecki في مؤلفهما الشهير الفلاح البولندي: " القيمة الإجتماعية تعني أي معنى ينطوي على مضمون واقعي وتقبله جماعة اجتماعية معينة، كما أن لها معنى محدد حيث تصبح في ضوئه موضوعا معينا، أو نشاطا خاصا"[1]. ومن التعريفات الهامة للمصطلح التي نالت إجماعا من طرف المنظرين في علم الإجتماع، تعريف كليد كلاكوهن G.Klukhohn الذي عرف القيمة على" أنها تصور، واضح أو مضمر، يميز الفرد أو الجماعة ويحدد ماهو مرغوب فيه، بحيث يسمح لنا بالاختيار بين الأساليب المتغيرة للسلوك، والوسائل، والأهداف الخاصة بالفعل"[2].

من جهة أخرى يعرف بارسونز T.Parsons في كتابه النسق الاجتماعي القيمة بأنها: "عنصر في نسق رمزي مشترك يعتبر معيارا، أو مستوى للاختبار بين بدائل التوجيه التي توجد في موقف معين"[3].

كما عرف حليم بركات القيم بأنها: " المعتقدات حول الأمور والغايات، وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس، توجه مشاعرهم وتفكيرهم، ومواقفهم، وتصرفاتهم واختياراتهم، وتنظم علاقتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين

أنفسهم والمكان والزمان، وتسوغ مواقفهم، وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم، أي تتصل بنوع السلوك المفضل وبمعنى الوجود وغاياته "[4].

ومن خلال ما سبق، يمكن أن نعرف القيم على أنها أحكام معيارية يحملها الفرد نحو الموضوعات وأوجه النشاط المختلفة، تشكل محك يحدد على أساسه ما هو مرغوب فيه أو مفضل في موقف توجد فيه عدة بدائل.

2. مفهـــوم نسق القيـــم:

تنتظم القيم مع بعضها البعض في نسق قيمي، بحيث تمثل كل قيمة في هذا النسق عنصرا من عناصره. ويعرف روكش M.Rokeach نسق القيم بأنه: " تنظيم من المعتقدات يتصف بالثبات النسبي، ويحمل تفضيلا لغاية من غايات الوجود، أو شكلا من أشكال السلوك الموصلة إلى هذه الغاية، وذلك في ضوء ما تمثله من أهمية بالنسبة للفرد "[5]. ويعرف محمد أحمد بيومي نسق القيم بأنه: " المعايير والمبادئ التي يتمسك بها المجتمع أو أغلب أعضاؤه، سواء صراحة أو ضمنيا "[6].

كما يعرف محمد خليفة نسق القيم بأنه: " البناء أو التنظيم الشامل لنسق الفرد وتمثل كل قيمة في هذا النسق عنصرا من عناصره وتتفاعل هذه العناصر معا لتؤدي وظيفة معينة بالنسبة للفرد "[7].

وفي ضوء ذلك، نعرف نسق القيم، بأنه مجموعة المبادئ التي يتمسك بها ويحتكم إليها المجتمع أو أغلب أعضاؤه، وتدفع الأفراد إلى تبني مواقف واتجاهات نحو موضوعات مختلفة، وتنظم سلوكاتهم وتصرفاتهم دون وعي منهم.

ثانيا : خصائص القيـــم:

إن التعرف على خصائص القيم جد مفيد لتمييز القيم عن المفاهيم التي لها تداخل معها كالاتجاهات، المعايير والمعتقدات... والقيم تتميز بخصائص معينة منها[8]:

1- القيم تدخل في الأنساق الكبرى للفعل الإنساني وهي المجتمع والثقافة والشخصية.
2- القيم عبارة عن تعميمات، من خلالها يمكن فهم فعل معين بأن له معنى، والقيم أيضا هي مفهومات تصويرية، بمعنى أنها تشكل أو تصاغ في ألفاظ مطلقة لكنها تطبق في حدود موقفية خاصة.
3- القيم لها درجة من العمومية، فلا يمكن أن تعبر عن تجربة مفردة أو موقف مفرد.
4- القيم هي دائما موضوعات مرغوبة، فهي ليست أشياء يرغبها الناس ولكنها ما يريده الناس ليشكل رغباتهم.
5- ليست كل القيم ظاهرة أو حتى شعورية، فنسق القيمة في ثقافة معينة قد يكون مستترا أو غير متعارف عليه.
6- القيم ليست متساوية في الأهمية ولها درجات مختلفة من التأثير على الفعل.

كما تتميز القيم بعدة خصائص أخرى، ككونها مشتركة بين عدد كبير من الناس، وتثير اهتمام الفرد والجماعة لارتباطها بحاجات حيوية اجتماعية أو طبيعية. كما أنها تستهدف صالح الجماعة ولها أهداف خلقية، وتتصف بالثبات النسبي والدينامية، و تميز القيم أيضا بمساندة بعضها البعض[9].

وتعمل القيم كقوى اجتماعية في تشكيل اتجاهات الاختيار عند الأفراد، وهي التي توجه الفعل الاجتماعي نحو الأهداف الخاصة أو العامة. وللقيم درجات مختلفة من التأثير على الفعل، ويرجع ذلك إلى أنها ليست متساوية في الأهمية. ومن المعروف أن كل نسق قيمي يحتوي على بدائل مقبولة اجتماعيا، لتسمح للمجتمع أو الأفراد بأن يكونوا في توافق مع المواقف الجديدة والمشكلات(10).

ثالثا : نسق القيم الاجتماعية السائد في المجتمع الجزائري:

لقد استطاع بيار بورديو من خلال كتابه " Sociologie de l'Algérie" أن ينقل لنا ببراعة صورة واضحة عن الحياة اليومية للجزائريين بتفاصيلها الدقيقة، بحيث اهتم بأقوال الأفراد وتفضيلاتهم ومعتقداتهم، ووصف لنا بدقة مختلف أوجه النشاط في المجتمع، والعادات الشعبية، وبنية الأسرة والعلاقات القائمة بين أفرادها. إذ يمكن على ضوئها كشف وتحديد العديد من القيم السائدة في تلك الفترة، لاسيما القيم الأسرية، الاقتصادية، الدينية والجماعية، وقيم الذكورة والشرف والحياء ...

1. القـــيم الأسريـــــة:

تشكل الأسرة مجموعة أولية ونموذج بنائي يتميز بالإستقرار والتماسك. و يرى بورديو أن الشكل السائد في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة هو نظام الأسرة الممتدة، حيث تضمن الأسرة لكل عضو فيها مكانته، وظيفته وسبب وجوده، ويمارس الأب فيها سلطة مطلقة على جميع أفرادها. وينتشر الزواج من الأقارب بشكل واسع لضمان بقاء الإرث داخل نفس الأسرة والحيلولة دون انتقاله إلى أفراد غرباء.

وتمارس الأسرة الممتدة ضبط اجتماعي قوي على أفرادها، فخيارات الأسرة هي التي تضبط أفعال الفرد وتفكيره. ولا يشكل هذا الضغط اضطهادا بالنسبة له لأنه يخاف من فقدان التضامن الذي تضمنه له، ولديه شعور أن لا وجود له إلا في إطار الكل.

ويرى بيار بورديو أن العلاقة التي تسود بين أفراد الأسرة (الجزائرية) تتميز بنوع من الاحترام والخوف، احترام تام لأنماط السلوك المعترف بها من طرف الجماعة، و الخوف الدائم من عقاب ولوم الآخرين أثناء عدم احترامه لبعض القواعد، ومثل هذا السلوك هو ناتج عن عملية التربية والتنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ صغره إلى غاية رشده، وتستمر جذور وآثار هذه العملية حتى كهولة وشيخوخة الفرد. وهذا راجع لمدى فعالية التنشئة الاجتماعية على نفسية وشخصية الفرد، فالمشاعر الفردية ليست هي بالغائية، لكنها يجب أن تبقى خفية ومقموعة، وكل سلوك لا يتوافق والمعايير أو الأحكام الأمرية يعتبر سلوكا مرفوضا من طرف العائلة.

2. قيـــم الذكورة:

تمثل قيم الذكورة موروثا ثقافيا كامنا داخل نسيج البناء الاجتماعي، وتتجسد صوره وأشكاله في أساليب التنشئة الاجتماعية التي تضع اختلافا في اكتساب الأبناء للقيم الاجتماعية ونماذج السلوك والاتجاهات بين الذكر والأنثى[11]. وفي هذا الإطار يرى بورديو أن في هذا المجتمع الفتيات يتعلمن ممن يكبرهن سنا الفضائل التي يجب أن تتحلى بتا المرأة، كالخضوع المطلق والكتمان. كما أن تعدد الزوجات والسلطة المطلقة للزوج وتفوق الرجال، ساهم في تكوين مجتمع أنثوي مستقل نسبيا، يعيش في وسط مغلق مع إقصاء النساء من كل المسؤوليات المهمة.

3. تقديس الماضـــي والارتباط الوثيق به:

حسب بورديو، السمة البارزة في المجتمع الجزائري هو ارتباطه الوثيق بماضيه الذي يظفي عليه طابعا من القداسة، ويرفض الحاضر والتطلع إلى المستقبل. فهذا المجتمع منذ زمن بعيد وجد مثالية في الماضي، احترام الماضي أخذ عنده شكل عبادة حيث يتخذ هذا الماضي باستمرار كمرجع. وهو يمثل بالنسبة له عصر ذهبي.

ولتفسير هذه النظرة للماضي، نستدل بتحليل فلورانس كلاكهون F.Klukhoon، التي تعتبر أن المجتمعات التي تقدس الماضي هي مجتمعات تقدس السلم وتحترم التقاليد الأسرية، وتحن إلى الماضي وتؤمن بأن الحاضر هو امتداد للماضي البعيد، كما ترى أن النظرة اللامستقبلية والحنين إلى الماضي والانجذاب إليه و اظفاء هالة من القداسة عليه، تعبير عن ضعف الارتباط بحاضر المجتمع وتعبير عن فقدان الطمأنينة ومرآة للقلق النفسي[12]. وهذا ما يعكس معاناة المجتمع الجزائري تحت وطأة الاستعمار الفرنسي وهو ما جعله ينفر من حاضره ويحن إلى ماضيه.

من جهة أخرى يرى تارد G.Tard أن المجتمعات التي يشدها الماضي، هي مجتمعات تحكمها سلطة التقاليد، ففي هذه المجتمعات تسود التقاليد ويفخر المرء ببلده وماضيه أكثر من الحاضر أو العصر الذي ينتمي إليه. أما المجتمعات التي ترتبط بالحاضر فهي مجتمعات يجذبها الجديد وتقتفي أثره وفي هذه المجتمعات الأفراد يتفاخرون بروح العصر ومتنكرين لقوميتهم ووطنيتهم[13]. ويتضح لنا من خلال ذلك، تجذر القيم الوطنية في المجتمع الجزائري وانتشار الوعي القومي لدى الأفراد وتمسكهم بوطنيتهم، ورفضهم واستنكارهم للمستعمر.

4. الوفاء لتقاليد السلف والتمسك بها :

يرى بورديو أن الوفاء لتقاليد السلف في هذا المجتمع، يشكل قيمة القيم تسيطر على جميع الأفعال الأساسية في الحياة الاجتماعية. وتنقل التقاليد أساسا بشكل شفهي عن طريق القصص، الأساطير، القصائد والأغاني. فمن خلالها تنقل شبكة متراصة من القيم التي تضبط سلوك الفرد وتوجه أفعاله. ويهدف تعليم التقاليد للأجيال حسب بورديو إلى نقل تجارب ومعارف السلف من جهة، ورسم الصورة المثالية التي تشكلها الجماعة للذات من جهة أخرى.

ويعكس إصرار المجتمع الجزائري في الحقبة الاستعمارية على التمسك بعاداته وتقاليده، إصراره على المحافظة على هويته وذاته الثقافية أمام محاولات الاستعمار الفرنسي لطمس الهوية الوطنية. فالحفاظ على التقاليد يشكل ميكانزمات دفاع ضد القمع والاستبداد والبطش من جانب السلطات، والذي من شانه الحفاظ على الذات من الدمار بواسطة هذه القوى الغاشمة.

5. القيـــم الاقتصاديـــة:

يرى بورديو أن اقتصاد هذا المجتمع يقوم على زراعة غير آلية وبدائية، الأمر الذي نجم عنه وجود تبعية شبه كلية للوسط الطبيعي وإلى الظروف المناخية. وهذا ما جعل التوازن بين الموارد والحاجات يتأثر بشدة بنظام المطر. وفي مثل هذه الحالة يؤدي اعتماد المزارعين إلى حد كبير على ظروف لا دخل لهم فيها، إلى استسلامهم لهذه الظروف وبالتالي تنشأ لديهم قيم الصبر والانتظار والتسليم بالقدر والمكتوب.

وحسب بورديو العمل في هذا النظام الاقتصادي لا يهدف إلا لإشباع الحاجات الأولية وضمان استمرارية الجماعة والاعتماد على الاكتفاء الذاتي.

مع غياب الحساب الاقتصادي العقلاني، فالبدوي الذي يعيش في الوسط الطبيعي مفهوم الوقت لديه ليس له نفس المدلول الموجود في الوسط التقني، فالاهتمام بالإنتاجية الذي يؤدي إلى القياس الكمي للزمن غير موجود. وعليه العمل الذي سيقوم به الفلاح هو الذي يتحكم في الوقت، وليس الوقت هو الذي يحدد العمل، لأن وتيرة العمل الفلاحي مرتبطة بالمراحل البيولوجية الحيوانية والنباتية.

كما أن في هذا النظام الاقتصادي، يكون اللجوء إلى الاقتراض إلا عند الضرورة القصوى، حيث يجد الأفراد في اللجوء إليه حرج ومشقة، لهذا لا يتم اللجوء للقرض إلا في الحالات الاستعجالية الموجهة للاستهلاك. والضمان الوحيد بين أطراف الدين هو الثقة والشرف، لان الدائن يرى أن من الواجب عليه إرجاع الدين، فعدم تسديده مساس بشرفه وانتهاك للأمانة.

ويعكس لنا هذا وجود قوي لقيم الأمانة والشرف التي تضبط المعاملات بين الأفراد. كما يتجلى لنا بوضوح انتشار قيمة القناعة، وعدم وجود توجه مفرط نحو الاستهلاك والاهتمام بالماديات.

6. القيـــم الدينيـــة:

إن تمسك غالبية أفراد المجتمع الجزائري بالقيم الدينية له أثره البالغ على سلوك هؤلاء الأفراد، حيث تطغى بصمة الإسلام وتأثيره على مختلف أوجه النشاط في الحياة الاجتماعية، وعلى حد تعبير بورديو، هناك عدة مؤشرات تدل على القبضة المحكمة للدين على الحياة داخل المجتمع. فالإسلام هو الفضاء الذي تسبح فيه كل الحياة، ليس فقط الحياة الدينية أو الفكرية ولكن حتى الحياة الشخصية والاجتماعية والمهنية.

كما يرى بورديو إن قوة الدين الإسلامي في الجزائر تكمن في التوافق والانسجام بين روح العقيدة الإسلامية والذهنية الجزائرية، فالرسالة القرآنية جاءت بتعاليم تتماشى مع نمط الحياة التقليدي، كما جاءت بنسق معايير يتوافق مع البنية العميقة للمجتمع الجزائري.

من جهة أخرى وحسب بيار بورديو فإن نسق القيم الخفي السائد في النشاطات الاقتصادية لا يترك أي مكانة للقيم المادية، فالذهنية الاقتصادية لهذه الحضارة تميزها الأخلاق الإسلامية: ازدراء حب الغناء والطمع والجشع، تحريم احتقار الفقراء والمساكين، التشجيع على التعاون وحسن الضيافة، أدب الحديث وشعور الأخوة الدينية.

وبعبارة أخرى هناك توافق بين نمط الحياة المنشود من طرف الدين الإسلامي ونمط الحياة الخاص بالمجتمع الجزائري، الأمر الذي سمح بتغلغل الرسالة القرآنية بعمق في هذا المجتمع.

7. القيـــم الجماعيـــة:

يرى بورديو أن في المجتمع الريفي يسود ضغط اجتماعي جد قوي، مع وجود تبعية شديدة للفرد تجاه الجماعة ، فالحياة الجماعية تخنق الحياة الفردية. وهناك إرادة لتقديم الغير وتكريس النفس للغير. فالفرد هو كائن من اجل الآخرين، وهو كذلك كائن من خلال غيره، فلا يمكنه أبدا أن يفصل مصيره الشخصي أو مصير أبنائه عن المصير المشترك للجماعة العائلية على حد تعبيربورديو.

وهو ما يفسر بوضوح التوجه نحو الجماعة وسيطرة القيم الجماعية، وتفضيل مصلحة الجماعة على المصالح الشخصية وهو عكس التوجه نحو الفردانية والأنانية. وترتبط القيم الجماعية بالتعاون باعتباره تجسيم لرسوخ

القيم الجماعية والتخلي عن المصالح الشخصية في سبيل المجتمع والبذل والعطاء من أجل الآخرين، وهو يعبر كذلك عن تماسك الجماعة وتفوق العمل الجماعي على العمل الفردي.

ويقـــودنا التوجـــه نحو الجماعة إلـــى أحد تغيـــرات النمط لبارسونز T.Parsons و هو " الذات مقابل الجماعة "، حيث يكشف لنا هذا المتغير النمطي عن التفاعل بين اهتمامات المرء ومصالح الجماعة وكيفية المفاضلة بينهما. ويؤكد التوجه نحو الجماعة حسب بارسونز، على أهمية النظام وأسبقية القيم الأخلاقية والجماعية في المواقف الجماعية على مصالح الذات ويهتم بأفضلية المعايير الأخلاقية في عمليات التقييم[14]. وهو ما يعكس التمسك بالقيم الأخلاقية في المجتمع الجزائري. وينبثق عن هذا التوجه نحو الجماعة قيم كثيرة تفيد أبناء المجتمع في الحياة الاجتماعية، مثل قيم التعاون، التضامن والتكافل الاجتماعي.

8. حيازة الأرض كقيمـــة اجتماعيـــة:

يرى بورديو إن العلاقة التي تجمع الفلاح بأرضه هي علاقة روحية أكثر منها نفعية، حيث يشعر الفلاح بأنه تابع إلى حقله أكثر من كون الحقل ملك له. فهذه الأرض لا تمثل بالنسبة له مادة أولية، ولكن هي بمثابة الأم المرضعة التي يجب الخضوع لها.

وتمسك الفلاح الجزائري وتعلقه الشديد بأرضه هو شيء طبيعي في مجتمع زراعي تقليدي يعتمد اعتمادا كليا على الزراعة التي تمثل مصدر عيشه الوحيد، مما يولد له شعور بالخضوع والتبعية المطلقة للأرض التي يسترزق منها.

ومن جهة أخرى ساهمت التشريعات العقارية الاستعمارية في نزع الملكية العقارية من الجزائريين لصالح المعمرين، من خلال تحويل ملكية الأراضي من ملكية شيوع إلى ملكية فردية حيث ساهمت في نزع الملكية العقارية من الجزائريين لصالح المعمرين[15]. إذ كانت السياسة الزراعية لفرنسا الاستعمارية تهدف إلى تسهيل تمركز أحسن الأراضي في يد الأوربيين بطرق ملتوية، وهذا ما جعل الفلاح أكثر تمسكا بأرضه، فالنزع العنيف للممتلكات العقارية الجماعية شكل الخطوة الحاسمة على طريق تدمير مرتكزات المنطق الداخلي للتوازن الاجتماعي وتفكيك القبائل. إضافة إلى تحول عدد كبير من المالكين إلى خماسين على أرضهم بعد أن خضعوا للممارسة الربوبية[16]. كلها عوامل جعلت الفلاح الجزائري أكثر حرصا وخوفا على أرضه، لتتحول بذلك حيازة الأرض إلى قيمة اجتماعية عنده.

9. **قيم الشـــرف والحيـــاء:**

يرى بورديو إن الشرف كشعور يسيطر على جميع السلوكات والتصرفات والعلاقة مع الآخرين، ونقيضه هو الخوف من العار والاستنكار الجماعي. فالجماعة تراقب سلوك الفرد بدقة خاصة العلاقات الاجتماعية، الأمر الذي يفرض على الفرد الحرص على المطابقة الظاهرية للسلوك خوفا من العار والاستنكار الجماعي.

من هنا نلاحظ أن هناك علاقة جدلية بين الشرف كشعور والخوف من العار والاستنكار الجماعي، ويظهر ذلك بقوة في مجال العلاقات الاجتماعية، فالاختلاط بين الجنسين و العلاقات المشبوهة بين الرجال والنساء تجلب العار والاستنكار الجماعي وتمس بشرف أفراد العائلة. ويعبر بورديو في كتاباته على الشرف بكلمة "**nif**" التي لها مدلول قوي في الثقافة الشعبية في الجزائر،

باعتبار أن خاصية الأنفة تشكل أبرز ما يميز الشخصية الاجتماعية الجزائرية.

ويشكل الشرف - كما سبق و أن أشرنا إليه في القيم الاقتصادية - الضمان الوحيد بين الأفراد عند الاقتراض حيث يجد الشخص نفسه مجبرا على إرجاع الدين خوفا على شرفه وسمعته. وهو مؤشر يوحي بقوة هذا الشعور الذي يسيطر على كل أوجه النشاط والسلوك في الحياة الاجتماعية.

أما الحياء فيعبر عنه بورديو بكلمة الحشمة "la hishmah" وهو ما يدل على الاهتمام باللسانيات الموجودة في المجتمع، فالحشمة حسب بورديو هي في نفس الوقت شرف وتحفظ تمنع إظهار الأنا "moi" ومشاعره الحميمة. فالعلاقة مع الآخرين وحتى داخل نفس الأسرة لابد أن تتم في إطار الثقافة السائدة.

وعليه فالحياء في المجتمع الجزائري له مدلولان: فهو أولا شرف يضبط العلاقات بين الأفراد خاصة المرأة التي يجب أن تتصف بالحياء في علاقاتها مع الآخرين سواء داخل الأسرة أو خارجها. و المدلول الثاني للحياء هو التحفظ الذي يمنع الفرد من التعبير عن مشاعره الحميمة. وهي صفة متأصلة في المجتمع الجزائري. فالجزائري لا نجده يعبر عن مشاعره وحبه علنا حتى مع زوجته، ويجد في ذلك حرج كبير، عكس الرجل الشرقي الذي لا يجد في ذلك حرج.

رابعا: التغيـــر القيمي في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال:

استنادا إلى ما سبق، نستخلص عند مقارنة القيم السائدة في المجتمع الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية بما هو عليه الآن، أن هناك تحولات عميقة في نسق القيم، حيث انهارت وتهاوت قيم لتحل محلها قيم جديدة.

ففي مجال القيم الأسرية نجد أن العوامل الاقتصادية والثقـــافية والسياسية لعبت دورا واضحا في تغير النسق والبناء العائلي في الجزائر بعد الاستقلال، فالعائلة الجزائرية هي في حالة تحول مستمر من عائلة ممتدة إلى عائلة نووية، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها أزمة السكن[17]. كما أخذت السلطة الأبوية تتدهور مما أدى إلى تغيير المفاهيم السائدة عن الأسرة وخصائصها ووظائفها، ومراكز السلطة والعلاقات السائدة فيها، وأصبح للأم والأبناء دور كبير فيها[18]. كما تعززت مكانة المرأة داخل الأسرة والمجتمع، بفضل تطور وضعها التعليمي وخروجها للعمل، إضافة إلى تطور المنظومة القانونية للمرأة.

وفيما يتعلق بقيم الذكورة، فمازالت سائدة في المجتمع الجزائري، حيث ظلت الأنوثة في البيئة الجزائرية عنوانا على الضعف، إذ أضحى مفهوم "الولية" يوحي إلى تلك الأنثى التي لها على الرجال حق الرعاية والأخذ باليد. كما بقيت كلمة الرجل في البيئة الجزائرية إلى الآن كلمة فوقية، ومازال الجزائري يجد في مفهوم الرجلة دغدغة مثيرة في نفسيته[19].

كما نلاحظ في عصرنا الحالي إن القيم الذاتية المرتبطة بالمصالح الشخصية قد طغت على حساب القيم الجماعية المرتبطة بمصالح المجتمع العليا، فالانتهازية والوصولية والنفاق هو المثل الأعلى الذي تقدمه وسائل الإعلام للشباب[20]. من جهة أخرى، لم يبق الجزائري أكثر حرصا وتمسكا بعاداته وتقاليده، مثل ذي قبل بل أكثر من ذلك أصبح العديد من الأفراد أكثر حرصا على إتباع الموضة، فالظواهر المدنية المستجدة والمتكرسة بصورة آلية ،أوشكت أن تأتي على بنية التقاليد التي تأصلت بها الشخصية الجزائرية العتيدة[21].

وفيما يتعلق بالقيم الاقتصادية، فقد ازداد التفاوت الاجتماعي حدة خاصة في بداية التسعينات ويظهر ذلك جليا من خلال بعض المؤشرات الخارجية للثراء والفقر القابلة للملاحظة المباشرة (مباني فخمة مقابل انتشار الأحياء الفقيرة، سيارات فخمة في مقابل حافلات النقل العمومي المكتظة بركابها،ارتفاع في عدد الشركات الخاصة ...)[22]. حدث هذا التفاوت في ظل غياب معايير تثمن الإمتياز والأداء والفعالية التي من شأنها لو توفرت لمنحته مشروعية[23]. كما برز توجه مفرط نحو الاستهلاك وتدهورت قيم العمل والأداء والكفاءة، وتم استبدالها بقيمة أخرى سلبية وضارة بعملية التنمية وهي قيمة الحصول على المال بأسرع وأسهل وسيلة ممكنة بغض النظر عن نوعية العمل أو قيمته الاجتماعية أو حتى مشروعيته. فالعمل المنتج ليس هو الطريق لتحقيق التطلعات بل المظاهر البراقة هي القدوة التي تقدمها وسائل الإعلام[24].

من جهة أخرى، نجد أن القيم المتعلقة بارتباط الفلاح وتعلقه بأرضه، قد تدهورت حيث تغيرت العلاقة التي تربط الفلاح بالأرض وتغيرت معها نظرته للعمل الفلاحي، مما أدى إلى ترك الأراضي الزراعية والفرار إلى المدن[25]. وهو ما تعكسه عمليات النزوح المتتالية لآلاف السكان من القرى والمداشر إلى المدن الكبرى بعد الإستقلال.

خاتمـــــة:

من خلال ما تقدم يمكن التوصل إلى حقيقة هامة، وهي أن التحولات والتغيرات الكبيرة التي عرفها المجتمع الجزائري عبر مختلف الفترات التي مر بها، أدت إلى إحداث تغير قيمي كان له آثار جوهرية على نسق القيم المركزي المحدد لهوية المجتمع. حيث برزت قيم جديدة على السطح، نتجت عنها سلوكات أدت إلى الإضرار بالمصالح القومية والتدهور الاجتماعي والاقتصادي، وفي المقابل ما زال المجتمع محافظا على بعض القيم التقليدية الأصيلة. وعليه فأن القيام بدراسات سوسيولوجية لتشخيص وتفسير مختلف مظاهر التغير التي طرأت على القيم في المجتمع، أمر جد مفيد لرسم سياسة ناجعة تهدف إلى المحافظة على القيم الايجابية، ووقف زحف القيم السلبية وحركة الهدم والإتلاف القيمي التي تستهدف البنية العتيقة في المجتمع، والتي يمكن أن تكون لها انعكاسات مستقبلية خطيرة، خاصة إذا تعلق الأمر بقيم الانتماء والارتباط بالوطن.

المراجـــع:

1. نخبة من أساتذة قسم علم الاجتماع، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية لطلاب قسم علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1985، ص505.
2. نفس المرجع، ص ص 505 - 506.
3. ماجد الزيود، الشباب والقيم في عالم متغير، دار الشروق، الأردن 2006، ص 22.
4. نفس المرجع: ص 23 .
5. معتز سيد عبد الله وآخرون، علم النفس الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، 2001، ص 373.
6. محمد أحمد بيومي، علم اجتماع القيم، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1990، ص 158.
7. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2، 2008، ص 142.
8. محمد أحمد بيومي، مرجع سابق، ص ص 159-164.
9. محمد محمد الزلباني، القيم الاجتماعية، مدخلا للدراسات الأنتروبولوجية والاجتماعية، الكتاب الأول، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، 1973، ص19.
10. أعضاء هيئة التدريس بقسم علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية، دراسات في علم الاجتماع، الهجرة النفطية والقيم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2005، ص273.
11. علي الطراح، التنشئة الاجتماعية وقيم الذكورة في المجتمع الكويتي، مجلة العلوم الاجتماعية، يصدرها مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، مجلد28، عدد 2، صيف2002، ص ص72-71.
12. محمد سعيد فرح، البناء الاجتماعي للشخصية، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ص 409 .
13. نفس مرجع: ص 410.
14. نفس المرجع، ص ص 392 -393.

15. Pierre Bourdieu : Sociologie de l'Algérie, édition Quadrige Puf, Paris 2010, P120.

16. سموك علي، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري – من أجل مقاربة سوسيولوجية – أطروحة دكتوراه غير منشورة، قسم علم الاجتماع، جامعة عنابة، 2004، ص ص 1-135.

17. محسن عقون، تغير بناء العائلة الجزائرية، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة قسنطينة، عدد17جوان 2002، ص ص، 128-131.

18. السعيد عواشرية، الأسرة الجزائرية إلى أين، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية لجامعة باتنة، العدد12، جوان 2005، ص127.

19. عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية، الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007، ص ص248 -250.

20. سمير نعيم أحمد، اثر التغيرات البنائية في المجتمع خلال حقبة السبعينات على انساق القيم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، يصدرها مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، العدد الأول، مارس1983، ص113.

21. عشراتي سليمان، مرجع سابق، ص213.

22. عنصرالعياشي، سوسيولوجيا الديمقراطية والتمرد بالجزائر، دار الأمين، القاهرة، 1999، ص16.

23. نفس المرجع، ص 45.

24. سمير نعيم أحمد، مرجع سابق،ص 117-118.

25. Pierre Bourdieu et A/Sayad: Le déracinement, La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie, les éditions de Minuit, Paris, 1964, P.P 161-164.

الهوامـــش:

(*) بيار بورديو Pierre Bourdieu (1930–2002) عالم اجتماع فرنسي، عمل كأستاذ للفلسفة بجامعة الجزائر إبتداءا من 1957، أستاذ كرسي لعلم الاجتماع بفرنسا سنة 1982. عين سنة 1985 كمدير للمركز الأوروبي لعلم الاجتماع، قام بعدة دراسات حول المجتمع الجزائري نشرها في عدة كتب أهمها:

Sociologie de l'Algérie سنة 1958، Travail et travailleurs en Algérie سنة 1963،

Le Déracinement, La crise del'agriculture traditionnelle en Algérie سنة 1964،

Esquisse d'une théorie de la pratique سنة 1972.

(**) يعتبر" Sociologie de l'Algérie " أول كتاب لبيار بورديو صدر سنة 1958، وهو يتضمن دراسة انتربولوجية للمجتمع الجزائري، قام بها خلال فترة قضائه للخدمة الوطنية بالجزائر، ابتداء من أواخر 1955، مستعينا بمكتبة الحكومة العامة لفرنسا بالجزائر، أين كان يعمل كمنتدب لدى الديوان العسكري. وبطلب من الجيش الفرنسي، أشرف بورديو سنة 1957 على دراسة ميدانية شملت كل الجزائر باستثناء الجنوب الكبير ومست كل الشرائح الاجتماعية. استغل نتائجها في مراجعة كتابه Sociologie de l'Algérie " لتصدر لاحقا طبعتان منقحتان الأولى سنة 1961 والثانية سنة 1963.

(***) أنظر:

Pierre Bourdieu : Sociologie de l'Algérie, édition Quadrige Puf, Paris 2010, P.P 93-105.